في الذكرى الثانية للحرب
حين هوَّمت في سماء بغداد الصواريخ والشائعات..!

اياد عطية الخالدي

عامان مرا على نهاية الحرب التي اسقطت نظام صدام الدكتاتوري ، بكل احداثها وفصولها وتداعياتها ، لكن ذاكرة العراقيين مازالت تحتفظ بالكثير من المواقف والاحداث ، التي ليس من السهل نسيانها او تناسيها ، مواطنون عراقيون عاشوا وقائع تلك الحرب ، واستذكروا في احاديث لـ(المدى) جانباً من تلك الوقائع والاحداث.

بغداد.. شوارع موحشة ، محال فارغة ، عوائل نازحة وعيون اهلها تترقب المجهول

النظام بث شائعات حول احتمال استخدام الاسلحة الكيمياوية بقصد ارهاب المواطنين

السؤال الذي كان العراقيون يجهلون اجابته.. ماثمن الخلاص الذي يجب علينا دفعه؟

ثمن الخلاص

يقول الشيخ انمار عيسى: قبل الحرب بأشهر اصبحنا متأكدين ان نظام صدام الدكتاتوري وصل الى مرحلة الاحتضار يلفظ انفاسه الاخيرة بعد خمسة وثلاثون عاما من الظلم والاستبداد والطغيان، وايقنا تماماً ان الولايات المتحدة وحلفاءها عازمون بالفعل على اسقاطه بالقوة، كل شيء كان يجري لصالح هذا الحل.

فالشعب العراقي ليس مستعداً للموت من اجل بقاء هذا النظام الفاسد، بل انه يتحين ساعة الخلاص اكثر من الامريكيين انفسهم، غير ان الجميع لايعرف الثمن الذي يجب على الشعب ان يدفعه مقابل ذلك خاصة ان العراقيين يعلمون بان النظام لن يتردد ان يحرق العراق وشعبه من اجل البقاء، وهنا كان يكمن القلق الذي يراود الجميع عبر سؤال كان يردده العراقيون كم هو الثمن الذي يجب ان ندفعه مقابل الخلاص؟.. كان الجواب الذي يأتي كل مرة.. ان الثمن سيكون باهظاً وباهظاً جداً، ربما سيموت الملايين من العراقيين، وربما سيستخدم نظام صدام اسلحة محرمة قد تحرق الزرع والضرع هذه الاسئلة، كانت حاضرة في كل في بيت عراقي، وفي كل حوار يجري حول الحرب القادمة لامحالة.

استعدادات على اكثر من جانب

ويقول احسان حميد (٣٥ سنة) من اهالي حي الادريسي في شارع فلسطين: قبل الحرب بعشرين يوماً، اجبرنا امام اصرار مختار المنطقة، وكان عضو فرقة، على الانضمام الى دفعة جرى تدريبها في الشهر الاخير قبل الحرب ضمن قوات مايسمى بجيش القدس في معسكر قناة الجيش شمالي مدينة بغداد.. لقد شعرنا بان الضباط غير مقتنعين بما يجرى ولم يكونوا جادين في التدريب، وكانوا مرتبكين ومترددين، وفي المعسكر كنا نتبادل الحوار وكانت احاديثنا تدور حول امكانية الحرب من عدمها؟ واذا وقعت هل نحن مستعدون لها؟ في الايام الاخيرة تزايد عدد الغائبين عن التدريب ضباطاً ومجندين، وكنا في تلك الفترة نقوم بحفر الخنادق ونحن نتساءل من لديه الاستعداد ليقاتل فيها؟ كما كنا نعمل حفراً كبيرة في المزارع والبساتين المجاورة للمعسكر ونقوم باخفاء الاعتدة والاسلحة فيها، ومع اقتراب العد التنازلي للحرب بدأت المعنويات تنهار والجنود يرفضون الالتحاق بالمعسكر، بتشجيع من الضباط، الذين اصبحوا يبحثون عن مبررات للانسحاب او الغياب بحجة ان الجنود انسحبوا، ويضيف احسان قائلاً: استطيع ان اؤكد لك ان الجميع في ذلك الوقت اصبح على قناعة بان القتال في هذا الحرب انما هو قتال من اجل نظام صدام وليس من اجل العراق..

هل نقاتل الامريكان؟

ويقول: يوسف حميد (٤٥سنة) ان المواطنين العراقيين والجيش العراقي كانوا يعيشون مع اقتراب الحرب جدلاً لم تستطع ماكنة النظام الاعلامية حسمه لمصلحة النظام كان السؤال الذي يطرح نفسه كل مرة: ماجدوى القتال، ان كان يبقي نظام صدام حسين في الحكم؟ واخرون يؤكدون انهم سيقاتلون ليس دفاعاً عن صدام ولكن من اجل العراق، وامريكا مهما تكن قوة احتلال، غير ان سلسلة الحروب التي خاضها نظام صدام تؤكد كل مرة ان الحروب لم تكن من اجل العراق والدفاع عن العراق، انما كانت كلها من اجل نزوات صدام وبقاء نظامه، ويضيف: كان هناك تخوف ايضاً من ان هذه الحرب ربما ستدمر العراق فقط، ويخرج منها نظام صدام سالماً فيزداد طغيانه وانتقامه من الشعب العراقي..

اسلحة الدمار الشامل

اما السيدة ايمان شريف (٤٢سنة) معلمة من منطقة الاعظمية، فتستذكر تلك الايام قائلة: كنا متأكدين تماماً ان الامريكان سيبدأون الحرب، ولكن لااحد يعرف كيف تنتهي؟

كلنا رسمنا في خيالنا سيناريوهات لما سيجرى ولم يكن بينها سيناريو واحد لايحمل صوراً لمجازر وقتل وانهار من الدماء والموت والتدمير، فالنظام المباد لم يقنع المجتمع الدولي بانه لديه فعلاً اسلحة للدمار الشامل فحسب بل حرص ان يقنع العراقيين انه بالفعل يملك هذه الاسلحة، وكنا واثقين تماماً بانه في النهاية سيستخدمها ضدنا قبل ان يستخدمها ضد الامريكان، ولهذا كانت واحدة من ضمن اهم استعدادات العوائل للحرب، كيفية مواجهة الاسلحة النووية او الكيمياوية فيما اذا استخدمت، وتستذكر: جارتي ام رحمن سألتني ماذا نفعل لو استخدم اي من الطرفين اسلحة نووية او كيمياوية، فاعطيتها بعض النصائح لاساليب بدائية وبسيطة؟ لمواجهة هذا النوع من الاسلحة، وكيفية بناء ملاجئ تستخدم فيها مادة النايلون حتى لانسمح بدخول هواء ملوث بالمواد الكيمياوية لهذه الملاجئ

مواجهة أسوأ الاحتمالات

اما السيدة، ام حيدر (٣٥ سنة) فقالت: في تلك الايام كانت العوائل العراقية، تستعد لمواجهة تبعات حرب لاتعرف كيف تجري وكم تطول وكيف تنتهي؟ لكن تجربة حرب عام ١٩٩١ علمتنا اشياءً كثيرة، وجعلتنا نضع الاحتياطات وأسوأ الاحتمالات لمواجهة الحرب، كانت العوائل تناقش فيما بينها السبل والاستعدادات التي يجب تهيئها، اهم الاحتياجات الاساسية هي الماء والطعام والوقود والملاذ الامن، فكرنا بان الماء قد يتلوث بفعل استخدام الاسلحة الكيمياوية ولهذا فاغلب العوائل في المنطقة لجأت الى حفر ابار داخل البيوت كما هيأنا مخازن للنفط واخرى للبانزين وحمايته بطريقة جيدة خوفاً من ان يتعرض للاشتعال، كما قمنا بشراء الاغذية خاصة الاغذية الجافة التي يمكن الاحتفاظ بها لفترة طويلة، كما قمنا بشراء (الفوانيس) واللالات، وكذلك الادوية المتنوعة لمواجهة اية حوادث طارئة، وأعددنا ملجأً خاصاً في حديقة المنزل، ان منطقتنا قد تتعرض الى القصف لوجود اهداف حيوية فيها، كقصور صدام، والبدالات، والفضائية العراقية، وكلية التربية التي تحولت الى مقر امني وعسكري.

المحال افرغت

ويقول الحاج عباس راضي (٥٥ سنة) صاحب محل في منطقة بغداد الجديدة، ان الايام الاخيرة التي سبقت الحرب شهدت اقبالاً من المواطنين لشراء المواد وخاصة الغذائية والجافة منها تحديداً استعداداً للحرب، لقد افرغت محالنا من العديد من البضائع ومنها المعلبات والسكائر والبطاريات الجافة والشموع التي قام المواطنون بخزنها في بيوتهم الامر الذي رفع اسعار هذه السلع الى اضعافها مرتين او اكثر.

واستطيع ان اقول لك أن معظم المحال ومنها محلي قد افرغت تماماً من البضائع.

صدام بدا منهاراً

ويستذكر معنا المهندس عادل ناصر (٥٢سنة) تلك الايام التي سبقت الحرب قائلاً: كان العراقيون يتابعون الاخبار وتداعياتها السريعة، وقد حرص صدام على الالتقاء بمجاميع من الضباط، في محاولة منه لرفع معنوياتهم في حرب تبدو خاسرة في كل الحسابات، واتذكر جيداً ذلك الحوار الذي جمعه مع مراسل لاحدى القنوات الامريكية، حيث ظهر صدام منهاراً وقلقاً ومضطرباً برغم محاولته اخفاء قلقه وارتباكه واظهار بعض الجلد وكل من شاهد صدام في ذلك اللقاء، ادرك ان هذه الحرب هي نهايته وان الجزع والخوف من الاتي كانت بادية على وجهه وتعابيره.. وعندما اعلن الامريكان انهم لن يمنحوا صدام اكثر من ٢٤ ساعة لمغادرة العراق مع ازلامه، تأكد الجميع أن نهاية المهلة هي ساعة الصفر لبدء المعركة، ساعتها تمنينا جميعاً ان يغادر صدام العراق ويجنب شعبه ويلات ومآسي الحرب لكنه ابى ان يفعل (الصحيح) ولو مرة في حياته.

حين ودعت جاري بطرس متى

ويستذكر هاني حاتم (٥٠سنة) متقاعد، الاحداث عشية الحرب قائلاً: قبل اندلاع الحرب بليلة واحدة طرق باب منزلنا جارنا بطرس متى وقالي لي أنه حسم امره وسيرسل عائلته الى احدى قرى قرقوش في مدينة الموصل، وانه والعائلة يرغبون بوداعنا، فمن يدري ماذا يحدث بعد الحرب وهل نلتقي مرةً اخرى؟ وبالفعل ودعنا بعضنا البعض الاخر وكان موقفاً مؤثراً كل منا يسأل الاخر، هل نلتقي مرة اخرى؟ هل ننجو من الحرب.. ويكمل الحديث بطرس متي (٥٢سنة) صاحب محل لبيع الاطارات قائلاً: نعم كانت فترة عصيبة تلك الايام التي عشناها قبل الحرب وفي اثنائها، قلت لجارنا العزيز هاني: ربما يجمعنا الله مرة اخرى وربما كل شيء جائز، فإن بقيت في دارك ولم تغادر فاما الدار لااحتاج ان اوصيكم، ولكن اوصيكم بدجاجات وطيور تركنا لها ماء وغذاء وماعليكم الامتابعتها حتى تحين ساعة الفرج!

بغداد بدت موحشة

وتقول ام فلاح (٥٥ سنة) معلمة متقاعدة: بدأ السكان في منطقتنا بخرجون تباعاً، العوائل الخارجة تودع بعضها بعضاً بالدموع والدعاء بأن يحفظ الله الجميع من كل مكروه بدت شوارع بغداد موحشة وخالية من سكانها معظم العوائل التي خرجت تركت شخصاً واحداً في منزلها، واستقر رأينا نحن ان نفعل الامر نفسه، فأستأجرنا سيارة تقلنا الى مدينة الناصرية ولم يبق في المنزل غير ابني صلاح وكان طالباً في الكلية العسكرية، وزوجته التي اصرت على البقاء معه في بغداد وبالفعل غادرنا بغداد وعبرنا جسر ديالى وعندها سألت زوجي، لقد خرجنا من بغداد، ترى هل نعود اليها مرة اخرى؟ ومتى نعود؟ وهل تبقى بغداد ام الحرب ستدمرها وتحيلها الى اطلال وذكرى لمدينة كانت يوماً عاصمة الدنيا!؟ وتمضي ام فلاح مواصلة حديثها: عندما خرجنا من بغداد، كان الشارع العام مليئاً بمئات القوافل من العوائل البغدادية الباحثة عن ملاذ اكثر اماناً وهي تحمل امتعتها تاركة خلفها منازلها وممتلكاتها، بعض العوائل انتشرت على طول الطريق حيث نصبت خيمها قرب القرى القريبة من بغداد، والبعض الاخر ذهب الى مدن الوسط والجنوب، وخاصة المدن الصغيرة الاقل استهدافاً من القصف الجوي.

قوافل نحو الشمال

اما عائلة المواطن خالد مجيد (٣٧سنة) موظف فيقول: نحن كما العديد من العوائل في بغداد، قررنا ان نذهب الى مدينة بعقوبة، وقد سبقنا الى هناك شقيقي حامد، الذي استأجر لنا مشتملاً في مدينة بعقوبة حيث توافدت الاف العوائل الى هذه المدينة، التي احتضن اهلها عدداً كبيراً منها وضيفوها في منازلهم، كانت مدن وقرى محافظة ديالى، هي المكان المفضل لاغلب السكان في بغداد لقربها منها.

لن نموت جوعاً

اما بسام الهرموش الذي استذكر معنا الاحداث عشية الحرب قائلاً: نحن عائلة صغيرة، تهيأنا كما كل العوائل فقمنا بخزن المواد الغذائية الضرورية، وكمية من المياه، تكفي لفترة لابأس بها، اتصل بنا اقاربنا الذين يسكنون في محافظة اخرى وحثونا على الخروج من بغداد، لكننا اجتمعنا وقررنا ان لانترك بغداد، ولانترك بيتنا، فلدينا مايكفي من الطعام ولم نفكر بأننا قد نموت جوعاً، لم يكن هناك متسع كاف للتفكير الطويل، ولم تكن لدينا اموال فائضة، ولهذا حسم اخي كل شيء قائلاً: الموت لن يكون في بغداد وحدها، فان كتب علينا الموت سنموت في اي مكان، وهكذا قررنا ان نبقى في بغداد، في بيتنا افضل من (مهزلة) النزوح الى مكان اخر وبقينا مع البعض الآخر الذي فضل البقاء في منزله ولم نخرج، ولذلك فنحن عشنا لحظات الحرب بكل تفاصيلها وفي اليوم الاول كان السكان يستمعون الى الاذاعات العالمية التي كانت تنقل اخبار الحدث المتوقع لحظة بلحظة، واتذكر جيداً اننا كنا نستمع الى اذاعة (مونت كارلو) التي اعلنت ان الحرب بدأت وان اول دفعة من الصواريخ في طريقها الى بغداد، كان الوقت المتوقع وصول الصواريخ فيه هو الساعة التاسعة مساءً قبلها بدقائق استمعنا الى صفارة الانذار، وخيم السكون على أنحا بغداد أما أنا فقد ظلت عيني تراقب السماء ومع وصول الصواريخ، وتعالى اصوات القذائف والانفجارات بدأت اول ايام الحرب.. الحرب التي لم يخطر ببال احد كيف تكون نهايتها؟